

التخلية قبل التحلية

د. محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيها المسلمون؛ يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وقال سبحانه حكايةً عن سيدنا نوع عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَبَيْنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٤﴾﴾ وقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وروى البخاري ومسلم عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشهر من السنة أكثر منه صيامًا منه في شعبان، زاد البخاري: (كان يصوم شعبان كله) وروى ابن حجر في المطالب العالية عن كثير بن مرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ رَبَّكُمْ يَطَّلِعُ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ إِلَى خَلْقِهِ فَيَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّهُمْ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَشْرُكًا أَوْ مَصْرُمًا»، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم شعبان فيدخل رمضان وهو صائم تعظيمًا لرمضان، وروى الطبراني والبيهقي عن محمد بن مسلمة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفْحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تَصِيْبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا» وروى مسلم عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العبادة في المهرج كهجرة إلي».

أيها المسلمون، ها هو ذا شهر رجب قد آذن بالرحيل مبشرا بقدوم شهر شعبان، الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتفي به تعظيمًا لشهر رمضان، ولخصائصه اختص بها، ومنها ليلة النصف منه وكما مر بنا من الأحاديث الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر في شهر شعبان من التقرب إلى الله تعالى والصيام فيه حتى ليكاد يصومه كله ويصل صيامه برمضان. وقد ذكر العلماء المرشدون المربون أن التخلية قبل التحلية، أي أن علينا أن نُظهر أواني قلوبنا استعدادًا لملئها بأنوار شهر رمضان، شهر الرحمة الذي أسأل الله أن يبلغنا إياه وينيلنا من جوائزه ومنحه.

أيها المسلمون، إذا كنا نعاني اليوم من فتنةٍ لم يمر بتاريخ هذه الأمة أسوأ منها، شاع فيها المهرج، واختلطت فيها الأوراق، كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك يقتضي منا مضاعفة الإقبال على الله عزَّ وجلَّ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهمية ذلك بقوله: «العبادة في المهرج كهجرة إلي» إذا أردت أن تكون بمثابة من هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة تاركًا الدنيا كلها خلف ظهره مقبلًا على الله مهاجرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن طريقك اليوم إلى ذلك أن تضاعف من جهدك في العبادة والتقرب إلى الله، في هذه الليالي الحالكة والأيام الصعبة المرّة التي تمرُّ بالأمة بأهوالها وفتنها وشدائدها. نعم يقتضي ذلك منا مضاعفة التقرب إلى الله تعالى بصورةٍ أكد

ليكون إقبالنا عليه جلَّ شأنه سببًا لكشف الغمة عنا ودفع غوائل الفتنة عن أمتنا، ولهذا تفاصيل أعرضها في نقاط.

الأمر الأول: التوبة الصادقة، ولقد أمرنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه أن نتوب جميعًا كبارًا وصغارًا، ذكورًا وإناثًا، أغنياء وفقراء، مدنين وعسكريين، كل أطراف مجتمعنا عليها أن تتوب إلى الله عزَّ وجل، فالظالم كثيرة، والمعاصي متفشية، وكلنا بحاجة إلى أن يعود إلى نفسه فيراقب نفسه ويحاسب نفسه ويصحح مساره؛ لأن هذا هو الطريق للنجاة من الفتن التي تحيط بنا، وتفاصيل التوبة إلى الله عزَّ وجل تكرر الحديث عنها، إلا أنني أذكر بها، أولها: الإقلاع عن الذنب، أن أصحح المسار فلا أستمروا وأوغل في طريق الخطأ والمعصية أيًا كانت، سواء كانت فيما يتعلق بحقوق الخلق، أم كانت فيما يتعلق بحقوق الخالق. أن أقلع عن الذنب.

والأمر الآخر: أن يكون لدي صدق الندم على ما فرط مني، وصدور مني من إساءةٍ وتقصيرٍ وذنبٍ ارتكبته بيني وبين ربي، أو بيني وبين إخواني. أن أندم الندم الشديد مستحضرًا الموقف بين يدي الله عزَّ وجل، وهول الساعة التي أمثل فيها بين يديه، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ استحضر هول ذلك الموقف، ومن الآن، إذا ندمت فعسى أن يتجاوز الله عنك ويقول لك: سترتك يا عبدي في الدنيا وأنا اليوم أغفر لك. هذا هو الأمر الثاني الذي يجب أن نضعه في عين الاعتبار في معنى التوبة الصادقة، سواء فيما يتعلق بحقوق الخلق أو فيما يتعلق في حقوق الخالق، حقوق الخلق هي صلة الرحم وحسن الجوار وبر الوالدين، تلك الحقوق التي ألزمتنا الله عزَّ وجل بها تجاه أرحامنا وتجاه جيراننا وتجاه أبناء أمتنا جميعًا، أن لا يصدر منا ما يسيء إليهم أو أن يتجاوز على حقوقهم.

الأمر الآخر مضاعفة الجهد في العبادة والتقرب إلى الله عزَّ وجل في هذه الأيام القادمة، استعدادًا لجوائز ومنح شهر رمضان المبارك، ولشهر شعبان منح وجوائز أيضًا. مضاعفة الجهد في التقرب إلى الله ولا سيما في الصيام، فلقد سمعنا من الحديث النبوي الشريف أنه كان يصوم ولا يكاد يفطر، وأحيانًا يفطر ولا يكاد يصوم؛ بحسب الظروف التي كان عليه الصلاة والسلام يمر بها، ولكن الشأن أنه كان يهتم ويحتفي بقدم شهر شعبان فيكثر من العبادة والتقرب والصيام فيه. فلا بد من أن نضاعف الجهد بالذكر والدعاء والاستغفار والصلاة والصدقات، وأقف عند كلمة الصدقات لأهميتها في أيامنا هذه. نحن وللأسف جعلنا من المحنة التي يعيشها الناس سببًا لابتزازهم وسببًا لاستغلالهم، يجدر بنا اليوم أن نخفف عنهم ليخفف الله عنا، أن نرحمهم ليرحمنا، وأن نحسن وفادتهم ليحسن الله إلينا. لا أن نستغلهم، فنغالي في الأسعار ونغالي في الأجور؛ أجور الخدمات وأجور المنازل، ما هذا عهدنا بأبناء بلدنا، عهدنا بأبناء بلدنا وحينما التزاحم وعدم الاستغلال، وأن

نخفف عن أصابتهم المصيبة فأرهمت كواهلهم وقست عليهم، وجعلتهم يعانون أشد المعاناة، أفزئد عليهم في معاناتهم؟ ما ينبغي أن يصدر منا ذلك، إن استطعت أن تسامحه فسامحه، وإن لم تستطع فاكتم بالأقل، قاسمه رغيفك كما فعل الأنصار بإخوانهم المهاجرين يوم أحسنوا إليهم ووسعوا لهم وأكرمهم فأكرمهم الله عز وجل ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ وصفهم بقوله ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ولو كان بهم ضائقة، ولو كان بهم شدة. يجدر بنا أن نضع هذا الأمر نصب أعيننا.

الأمر الآخر أن يحاسب كل منا نفسه على ما مضى ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِرَهُ﴾ كل منا لو عاد إلى نفسه كما قال لنا سيدنا عمر رضي الله عنه «حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتزينوا ليوم العرض الأكبر» نعم علينا أن نحاسب أنفسنا سعيًا إلى تصحيح سلوكنا وتقويم اعوجاجنا وتبرئة ذمنا وإصلاح ذات بيننا، لنكون على أتم الاستعداد لضيافة الرحمن في شهر رمضان المبارك، ولنكون على أتم الاستعداد للقاء الله، ولقاء الله وشيخك، ربما أصبحت فلم تمس، وربما أمسيت فلم تصبح، تذكر أنك على موعد مع ربك سبحانه وتعالى،

الأمر الآخر؛ حسن الاستعداد لاستقبال ليلة النصف من شعبان، وحسن الاهتمام بها، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن ربكم يطلع ليلة النصف من شعبان إلى خلقه، فيغفر لهم كلهم، إلا أن يكون مشركًا أو مشاحنًا» اسمعوا أيها المسلمون؛ المشرك والمشاحن جعلهما الله تعالى بمثابة واحدة في الحرمان من رحمته، نعم المشرك عابد الوثن عابد اللات والعزى، والذي امتلأ قلبه حقدًا على إخوانه فقطع الصلة فيما بينه وبينهم، واعتدى على دمائهم وأموالهم، هما سواء. نحن في فتننة تعرضنا لكثير من أسباب الحرمان من رحمة الله عز وجل، لأن أصعب ما في هذه الفتننة حالة القطيعة والكراهية التي شاعت بين الناس بسبب هذه الفتننة، إن أهم هدف من أهداف هذه الفتننة تمزيق هذا المجتمع، حتى غدت الأسرة نفسها ممزقة بين موالٍ ومعارض، بين من يمشي بهذا الاتجاه ويمشي بذلك الاتجاه، خدمنا بذلك الشيطان وخدمنا بذلك إسرائيل. ست سنوات ونحن نعاني من قتال الأخ لأخيه، وليس قتال إسرائيل التي تتربع على مقدساتنا. إسرائيل آمنة مطمئنة نوثق الروابط معها ونتعاون معها ونزورها سرًا أو علانية، ونستعين بها ونعينها، بينما تجاه إخواننا وأبناء أمتنا وأقربائنا نقاتلهم، نستعين بإسرائيل عليهم، نستعين بأميركا عليهم. هذا أسوأ ما في فتننتنا.

«إن ربكم يطلع ليلة النصف من شعبان إلى خلقه فيغفر لهم كلهم إلا أن يكون مشركًا أو مشاحنًا»، أو «مصارمًا» في رواية أخرى، إن هذه الحالة التي نحن فيها اليوم حالة لا تبشر بخير، إلا أن نعود إلى طريق الرشد والصواب، إلى طريق المحبة ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هل قال أفسدوا أم

أصلحوا؟ هؤلاء الذين يقودون هذه الفتنة أنفسهم هم أحزاب وفئات وفصائل تقتتل فيما بينها أكثر ما تقتتل مع النظام أو الدولة، لأن الهدف رسمه الشيطان، لأن الهدف مطامع ذاتية، لأن الهدف ديني وخسيس، لأنهم أدوات لتنفيذ مخطط التمزيق والتشتيت

«إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها، فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا فيقول: ألا من مستغفر فأغفر له، ألا من مسترزق فأرزقه، ألا من مبتلى فأعافيه، ألا كذا كذا حتى يطلع الفجر» - حديث رواه سيدنا علي رضي الله تعالى عنه وأخرجه ابن ماجه - لا تعبروا اهتماما ولا تعطوا سمعكم لأولئك الذين أماتوا ديننا بسليبتهم وجهلهم، ينكرون فضل ليلة النصف من شعبان، ويستهجنون اهتمامنا بها، دعوهم فهم بلاء هذه الأمة، هم مشكلة هذه الأمة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا حسن الإقبال لطاعته، وأن يعيد لحمة المودة والمحبة فيما بيننا، وأن بفرج عنا ويكشف عنا ما أصابنا من فتن.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين

خطبة الجمعة في 21 / 04 / 2017م

